قراءة في قصيدة واحر قلباه
مقاربة تداولية

المهدي إبراهيم الغويل
أكاديمية الدراسات العليا ـ مصراتة
البريد الإلكتروني : almahdy1971@gmail.com

الملخص البحث

كثيرا ما مر بنا أن المعنى في بطن الشاعر كما إننا ندرك أن النص إذا أطلقنا قيده قد يكشف لنا عن أشياء لا تظهر على سطحه وأن مراميه ومقاصده لا تتوقف عند تمثل المحمولات الدلالية القريبة بما تقتضيه تراكيب النص لغويا وهذا بالدرجة الأولى يتطلب في كل مرة خوض مغامرة مقاربة النص وفق سياقاته وما قد تفرضه علينا موحياته بما تقتضيه حركة المعنى بين اللغة واستعمالاتها وظيفيا وهذا ما دأبت عليه النظرية التداولية ومطارحاتها المنهجية ، وبالرجوع إلى مسكوكاتنا الأدبية قراءة وتحليلا ، نجد أنها تشكل ميدانا واسعا للوقوف بشكل عملي على عملية استنتاج الدلالة وترسيخ قواعد متينة في مقاربة النص والوقوف على جمالياته والتماهي مع موحياته وبخاصة عندما نكون مع من أطلق كلماته شاردة وترك قراءه ساهرين يختصمون حول أبعادها ومراميها .

استلمت الورقة بتاريخ 2023/9/5
وقبلت بتاريخ 25 /2023/9
ونشرت بتاريخ 2023/10/1

الكلمات المفتاحية:
مقاربة . تداولية .
قراءة . استلزام

لعل أول ما يواجهنا عند سماعنا بدراسة أو قراءة عن المتنبي هو سؤال ماذا عسانا أن نقدم من جديد عمن ملأ الدنيا وشغل الناس ، لكن هذا التساؤل والاستغراب سرعان ما يتلاشيان عندما يتأكد لدينا أن المتنبي شاعر فر من زمانه إلى زماننا ولم تزل كلماته تلامس في كل واحد منا طبيعة الأنا المتكلمة . إنه بحق خصوصية الإبداع وفنيات الصياغة وشاعرية العبارة واحتشاد المعاني .

ولإن كانت الاستراتيجية الإقناعية تهدف إلى تحقيق مقاصد المرسل من خطابه فإن التداولية ترمي إلى الوقوف على المقاصد الحجاجية من الخطاب ومن هنا جاءت مشكلة الدراسة التي انصب هدفها على البحث في الغاية الجمالية والقيم المعنوية في الخطاب الإبداعي تأسيسا على ان البناء الفني والشعرية يهدفان إلى تحقيق معان جديدة وإضافية وهذا كله يصب في قضايا مثل المعنى السياقي وفكرة المعنى ومعنى المعني التي تحدث عنها الجرجاني صاحب نظرية النظم .

ولقد حظي المتنبي شخصية وشعرا باهتمام كبير من قبل الدارسين قديما وحديثا حت إن عدد الدراسات حوله قاربت من الألفين . كما أن هذه القصيدة كان لها نصيب كبير من الاهتمام ؛ فقد تناولها الدارسون من الجانب البنيوي ومن الجانب الأسلوبي إلا إنها لم تحظ بدراسة وفق المنهج التداولي الحديث رغم كثرة الدراسات التداولية الحديثة للشعر باعتبار أن هذا النوع من الدراسة صار سائدا في الدرس الأدبي الحديث وقد سلكت في مقاربة هذه القصيدة المنهج التحليلي في تتبع مساراتها وحركة معانيها .

نص القصيدة :

وَاحـرّ قَلْبـاهُ ممّــنْ قَلْبُهُ شَــبِمُ وَمَنْ بجِسْمي وَحالي عِندَهُ سَقَـمُ

ما لي أُكَتِّمُ حُبّاً قَــدْ بَرَى جَسَدي وَتَــدّعي حُبّ سَيفِ الدّوْلةِ الأُمَمُ

إنْ كَــانَ يَجْمَعُنَا حُـــبٌّ لِغُرّتِهِ فَلَيْتَ أنّـــا بِقَـدْرِ الحُبّ نَقْتَسِمُ

قد زُرْتُهُ وَسُيُــوفُ الهِنْدِ مُغْمَـدَةٌ وَقـد نَظَـرْتُ إلَيْهِ وَالسّيُــوفُ دَمُ

فكانَ أحْسَـــنَ خَلـــقِ الله كُلّهِمِ ... وَكانَ أحســنَ ما في الأحسَنِ الشّيَمُ

فَـوْتُ العَدُوّ الذي يَمّمْتَهُ ظَفَـــرٌ ... في طَيّهِ أسَـــــفٌ في طَيّهِ نِعَـــمُ

قد نابَ عنكَ شديدُ الخوْفِ وَاصْطنعت ... لَكَ المَهابَـةُ مـــا لا تَصْنَعُ البُهَمُ

أَلزَمـــتَ نَفسَكَ شَيئاً لَيسَ يَلزَمُها ... أَن لا يُـــــوارِيَهُم أَرضٌ وَلا عَـــلَمُ

أكُلّمَا رُمْتَ جَيْشاً فانْثَنَى هَـــرَباً ... تَصَـرّفَتْ بِـــكَ في آثَـــارِهِ الهِمَمُ

عَلَيْكَ هَـزْمُهُمُ في كـــلّ مُـعْتَرَكٍ ... وَمَـــا عَلَيْكَ بِهِمْ عارٌ إذا انهَـزَمُوا

أمَا تَـرَى ظَفَراً حُلْواً سِوَى ظَفَـــرٍ ... تَصافَحَتْ فيهِ بِيضُ الهِنْدِ وَاللِّممُ

يا أعـــدَلَ النّاسِ إلاّ في مُعـــامَلَتي ... فيكَ الخِصـامُ وَأنتَ الخصْمُ وَالحكَمُ

أُعِيذُها نَظَـــراتٍ مِنْكَ صـادِقَةً ... أن تحسَبَ الشّحمَ فيمن شحمهُ وَرَمُ

وَمَا انْتِفَاعُ أخـــي الدّنْيَا بِنَاظِـرِهِ ... إذا اسْتَـــوَتْ عِنْدَهُ الأنْـوارُ وَالظُّلَمُ

سَيعْلَمُ الجَمعُ ممّنْ ضَـمّ مَجلِسُنا ... بـأنّني خَـيرُ مَنْ تَسْـــعَى بهِ قَـــدَمُ

أنَـا الذي نَظَـرَ الأعْـــمَى إلى أدَبي ... وَأسْمَعَتْ كَلِماتي مَـــــنْ بهِ صَمَمُ

أنَامُ مِـــلْءَ جُفُوني عَنْ شَـوَارِدِهَا ... وَيَسْهَرُ الخَـــلْقُ جَرّاهَا وَيخْتَصِمُ

وَجـاهِلٍ مَـــدّهُ في جَهْلِهِ ضَحِكي ... حَتى أتَتْه يَـــــــدٌ فَـــرّاسَةٌ وَفَمُ

إذا رَأيْتَ نُيُـــوبَ اللّيْثِ بـارِزَةً ... فَلا تَظُـــنّنّ أنّ اللّيْـثَ يَبْتَسِمُ

وَمُهْجَةٍ مُهْجَتي من هَمّ صَـــاحِبِها ... أدرَكْتُهَا بجَـــوَادٍ ظَهْـــرُه حَـــرَمُ

رِجلاهُ في الرّكضِ رِجلٌ وَاليدانِ يَـدٌ ... وَفِعْلُهُ مَـــا تُـريدُ الكَفُّ وَالقَدَمُ

وَمُرْهَفٍ سـرْتُ بينَ الجَحْفَلَينِ بـهِ ... حتى ضرَبْتُ وَمَـــوْجُ المَوْتِ يَلْتَطِمُ

الخَيْـلُ وَاللّيْـلُ وَالبَيْداءُ تَعـــرِفُني ... وَالسّيفُ وَالرّمحُ والقرْطاسُ وَالقَلَمُ

صَحِبْتُ في الفَلَواتِ الوَحشَ منفَرِداً ... حتى تَعَجّبَ مني القُـــورُ وَالأكَـــمُ

يَا مَنْ يَعِـــزّ عَلَيْنَا أنْ نُفَـــارِقَهُمْ ... وِجـــدانُنا كُلَّ شيءٍ بَعدَكمْ عَـــدَمُ

مَا كـــانَ أخلَقَنَا مِنكُـمْ بتَكـرِمَةٍ ... لَـــوْ أنّ أمْـــرَكُمُ مِن أمـرِنَا أمَـمُ

إنْ كـــانَ سَـرّكُمُ ما قالَ حاسِدُنَا فَمَا لجُـــــرْحٍ إذا أرْضـاكُمُ ألَـــمُ

وَبَيْنَنَا لَـــوْ رَعَيْتُمْ ذاكَ مَعـــرِفَـةٌ إنّ المَعارِفَ في أهْـــلِ النُّهَى ذِمَمُ

كـــم تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْباً فيُعجِـزُكمْ وَيَكْـــــرَهُ الله ما تَأتُونَ وَالكَـرَمُ

ما أبعدَ العَيبَ والنّقصانَ منْ شرَفِي أنَا الـــثّرَيّا وَذانِ الشّيبُ وَالهَرَمُ

لَيْتَ الغَمَامَ الذي عندي صَـواعِقُهُ يُزيلُهُنّ إلى مَـــــنْ عِنْدَهُ الـــدّيَمُ

أرَى النّوَى يَقتَضيني كـــلَّ مَرْحَلَةٍ لا تَسْتَقِلّ بها الوَخّـــادَةُ الرُّسُمُ

لَئِنْ تَرَكْـــنَ ضُمَيراً عَـنْ مَيـامِنِنا لَيَحْدُثَنّ لِمَـــــنْ وَدّعْتُهُمْ نَـــدَمُ

إذا تَرَحّلْتَ عـن قَوْمٍ وَقَـد قَـدَرُوا أنْ لا تُفـــارِقَهُمْ فالرّاحِلونَ هُمُ

شَـــرُّ البِلادِ مَـكانٌ لا صَـديقَ بِهِ وَشَرُّ ما يَكسِبُ الإنسانُ ما يَصِمُ

وَشَـــــرُّ ما قَنّصَتْهُ رَاحَـتي قَـنَصٌ شُهْبُ البُزاةِ سَـــواءٌ فيهِ والرَّخَمُ

بـــأيّ لَفْـظٍ تَقُـولُ الشّـعْرَ زِعْنِفَةٌ تَجُـــوزُ عِندَكَ لا عُرْبٌ وَلا عَجَمُ

هَـذا عِتـابُـــكَ إلاّ أنّـهُ مِـــــقَةٌ قـــــد ضُمّنَ الـــدُّرَّ إلاّ أنّهُ كَلِمُ

مهاد نظري

حظي الدرس التداولي باهتمام كبير وصار مجالا خصبا للدراسات التي تتناول الإبداع الأدبي . ومن خلال البحث في المعنى اللغوي يتضح أن معنى التداول يدور حول معنى التبادل والتحول والتغير والانتقال من حال إلى حال . وانطلقت الدراسات الغربية من أن الدرس التداولي يختص بالبحث في العلاقة بين العلامات ومؤوليها . وتطورت التداولية مع أبحات أوستن وغرايس في إطار فلسفة اللغة[1] .

ومن خلال الاطلاع والوقوف على الجدل الحاصل في هذا السياق يمكن أن يتلخص لدينا مفهوم التداولية على أنها دراسة استعمال اللغة في الخطاب .

كما إنه يمكن تحديدها على أنها دراسة اللغة من وجهة نظر وظيفية ، أو أنها دراسة كل جوانب المعنى التي تهملها النظريات الدلالية ، أو أنها فرع من علوم اللغة يبحث في كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم ، أو دراسة معنى المتكلم ؛ فالتداولية بحسب ذلك هي دراسة اللغة في الاستعمال أو في التواصل ؛ فالمعنى ليس مرتبطا بما عند المتكلم وحده أو السامع وحده وإنما يكمن في تداول كلمات اللغة بين المتكلم والسامع في إطار سياق تواصلي معين[2]. ويتم التعامل مع التداولية لا على أن اللغة نظام ثابت أو بنية وإنما على أساس الاستعمال في المواقف الاتصالية المختلفة[3] . ولقد غدا دارس النص متأثرا أيما تأثر بالدراسات اللسانية أو الشكلية البنيوية التي أقصت دلالة الكلام وما يصاحبه من آثار السياق والمقام باعتبار الكلام المتحقق في النص ظاهرة فردية لا يمكن تقنينها بقانون . وفي هذا يتم الاعتماد على البنية اللغوية التي تخضع لقوانين التركيب ؛ وبهذا تكون بمعزل عن الفكر والواقع .

ولعل الغاية التي انصرفت إليها التداولية في دراسة الجانب الاستعمالي للغة هو تحقيق التواصل بين المتخاطبين .

ومما ترومه هذه الورقة هو البحث في قضية تأويل المعاني المضمرة في النص . ويثير البحث عدة تساؤلات منها : أين يكمن معنى العبارة ؟ هل في ذات العبارة ؟ أم في قصد الشاعر ؟ وهل المتلقي طرف في تمثل المعنى في لحظته ؟ . ومن هذا تتطرق الدراسة إلى مقاربة المستوى التخاطبي في هذه القصيدة ورصد آلياتها .

ويعد الاستلزام الحواري أهم جوانب الدرس التداولي . ومفهوم الاستلزام هنا هو لزوم شيء عن طريق قول شيء آخر أو هو شيء يعنيه المتكلم ويوحي به ويقترحه ولا يكون جزءا مما تعنيه الجملة بصورة حرفية ؛ فهناك إذن معنى حرفي وهو ما يعرف بالمعنى القضوي وهناك معنى مستلزم ؛ فالمعاني ليست دائما صريحة فقد يستدعي الموقف من المتكلم أن يتجاوز التصريح بالمعنى المباشر . فظاهرة الاستلزام الحواري تؤسس لنوع من التواصل يمكن وسمه بالتواصل غير المعلن بحجة أن المتكلم يقول كلاما ويقصد غيره ، كما أن المستمع يسمع كلاما ويفهم غير ما سمعه[4] .

والاستلزام الحواري يعد " حلقة وصل بين المعنى الحرفي الأصيل والمعنى المتضمن في شكل الجملة ويعد من أهم جوانب البحث التداولي الذي يعول على السياق في معرفة المعنى"[5] .

إن ما يقال هو ما تعنيه الكلمات والعبارات أما ما يقصد فهو ما يريد المتكلم أن يبلغه للسامعين بطريقة غير مباشرة معولا في ذلك على أن السامع قادر على أن يصل إلى مراده بحسب الأعراف الاستعمالية .

وفي الأفعال الكلامية غير المباشرة يبلغ المتكلم المتلقي أكثر مما يقول عن طريق الاعتماد على خلفية المعلومات المتبادلة بينهما . بالإضافة إلى اعتماده على قوة الإدراك والاستدلال العام عند المتلقي[6] .

والمعنى في الاستلزام الحواري يكون مضمرا داخل البنية العميقة للجملة . وقد جاءت دراسات الفيلسوف الأمريكي (كرايس) التي ألقاها في جامعة هارفرد سنة 1967م ليشكل الأساس لنشأة مفهوم الاستلزام الحواري حيث وضع فيها تصورا واضحا لفكرته والأسس التي تقوم عليها [7] وقد ذهب كرايس إلى أن عملية التواصل بين أطراف الخطاب تقوم على مبدأ عام سماه مبدأ التعاون الحواري وينطلق هذا المفهوم ـــ بحسب كرايس ـــ من أن الناس في حواراتهم قد يقولون ما لا يقصدون وقد يقصدون أكثر مما يقولون وقد يقصدون عكس ما يقولون[8] . ولهذا عد التعاون الحواري من أهم الركائز التي يقوم عليها الاستلزام الحواري حيث يقوم هذا المبدأ على التعاون بين المتكلم والمخاطب في تحقيق الهدف من الحوار . وقد يكون هذا الهدف محددا قبل دخولهما في الحوار أو قد يحصل تحديده في أثناء الحوار[9] .

ومما ترومه هذه الورقة أيضا هو بحث كيفية توظيف مفهوم الاستلزام الحواري ـــ باعتباره أبرز المفاهيم في حقل التداولية ـــ من خلال شعر المتنبي الحافل بالمعاني غير المباشرة وانطلاقنا سيكون هنا من قاعدة ملخصها : أن المعنى المستلزم هو غير المعنى القضوي[10] الصريح والمباشر .انطلاقا من أن مدار الاستلزام الحواري على معنى لزوم شيء عن طريق قول شيء آخر أو أنه شيء يعنيه المتكلم ويوحي به ويقترحه ولا يكون جزءا مما تعنيه الجملة بصورة حرفية[11] .

الشق التطبيقي

إن أول ما يواجهنا في المقاربة التداولية هو بناء السياق التواصلي للقصيدة وهذا بدوره يستدعي دراسة مجمل العلاقات الموجودة بين المتكلم والمخاطب مع التركيز على البعد الحجاجي والإقناعي وأفعال الكلام بما يقتضيه الدرس التداولي . كما أن السياق التواصلي يجب أن يحظى باهتمام أكثر من الاهتمام بالتراكيب ومعانيها القضوية كما يلزمنا التركيز على العلاقة بين العلامات والسياق التواصلي أكثر من الاهتمام بالتراكيب ومعانيها القضوية . .

ولعلنا من خلال هذه المقاربة نعمد إلى تجاوز البنية الشكلية والجمالية من خلال العمل على مساءلة أفعال الكلام والمقصدية الوظيفية . ومن هنا يتم الانتقال من الحرفي إلى الإنجازي . وانطلاقا من المعنى البراغماتي في المنظور التداولي فإن المعنى الأحق بالاحتفاء به هو المعنى الذي يحقق الفائدة الحقيقية المرجوة من الفعل

التخاطبي والحجاجي الذي تتحرك فيه مقاصدية النص الشعري انطلاقا من أن التداولية هي دراسة المقاصد السياقية ودراسة المعنى الخفي وهذا المعنى قد يختلف عن المعنى التركيبي الحرفي (المعنى القضوي)

ويقابلنا هنا محور رئيس في هذه المقاربة وهو محور (الأنا والآخر) ولعل هذا المحور هو الذي شكل معادلة تتكشف من خلالها شفرات النص ؛ فالشاعر المعروف باعتداده بنفسه يجعل ضمير التكلم حاضرا بشكل ملفت حتى كأنه يجعلها قصيدة للافتخار بالذات ولكي يسوغها في بلاط سيف الدولة يوشحها بوشاح المدح والعتاب ؛ إذ يظهر من خلال المقارنة بين أجزاء القصيدة من الافتتاح إلى الخاتمة أن القضية الأساسية التي قامت عليها القصيدة هي الافتخار بالذات .

فالقصيدة مشحونة بالمشاعر المختلفة متأججة بالعواطف وهي تمثل عدة تجارب للشاعر منها تجربة علاقته مع سيف الدولة في حال السلم والحرب وعلاقته مع منافسيه وحاسديه من الشعراء ورجال البلاط ولعل التجربة الأهم كما تظهرها لنا هذه القصيدة هي تجربة الإحساس بالفشل ؛ فقد شعر أبوالطيب بأن آماله لن تتحقق في ظلال سيف الدولة وكان هذا الإحساس ذروة المأساة ودفعه هذا الشعور إلى التمرد الداخلي وحصل نوع من التصادم بين طموحه العارم وإحساسه العالي بالفشل [12] .

يقول أبوالطيب : واحر قلبي واحتراقه حبا بمن قلبه بارد لا اعتناء له بي ولا إقبال له علي ومن بجسمي وحالي من إعراضه سقم يوجب ألمهما ، ثم لأي شيء أخفي حبه وغيري يظهر أنه يحبه وهو بخلاف ما يضمر وأنا مضمر من حبه ما يزيد مضمره على ظاهره ومكتومه على شاهده والأمم تشركني في ادعاء ذلك بقلوب غير خالصة ونيات غير صادقة فينحل جسمي تقدمي في صدق وده وتأخري فيما يخصني من فضله . وإن حصلت الشركة في حبه فحظي وافر وإن كان يجمعني وغيري أن أكون أنا وهو محبين له فليث حظي منه مثل حظي من المحبة له أي إن كان يجمعنا حبه والكلف بمودته فليت أنا نقتسم المنازل عنده بقدر ما نحن عليه من محبتنا الخالصة وما نعتقده من مودتنا الصادقة فلا يبخس المخلص حقه ولا يبذل للمتصنع بره . وقد خدمت سيف الدولة في حالتي السلم والحرب ، وبلوته في الحالين فكان أحسن الخلق وكانت أخلاقه أحسن ما فيه . وقد حدث أن اتبع بعض ملوك الروم ففاته ففوت العدو الذي قصدته ففر عنك لاستحكام جزعه ظفر ظاهر واستعلاء بين وإن كان ذلك الظفر في طيه منك أسف على ما حرمته من إدراكه ، وفي طي ذلك الأسف نعم بها صرف الله عنك مؤونة الحرب وشدة معاناة اللقاء وحفظ عسكرك من جراح أو قتل ففي هذا نعم من الله كثيرة . وقد ناب عنك خوف العدو لك فذعره وصنعت لك فيه مهابتك وبلغت لك مخافتك ما لا تصنعه الشجعان . وقد ألزمت نفسك ما لم يكن يلزمها وكلفتها ما لا يحق عليها من أن عدوك لا يواريهم أرض تشتمل عليهم ولا يسترهم عنك جبل يحول بينك وبينهم . وكلما فر جيش من جيوش الروم وولى عنك هاربا تصرفت بك همتك في أثره فلم يرضك انهزامهم دون أن ينالهم القتل . ولا عار عليك أن يغلبهم خوفك فيهزموا دون قتال . وليس يحلو لك ظفر تناله إلا أن يكون ذلك بعد مصادمة وقتال . ويا أعدل الناس في أحكامه وأكرمهم في أفعاله إلا في معاملتي فإنه يخرجني عن عدله ويضيق علي ما قد بسط من فضله فيك خصامي وتعبي وأنت خصمي وحكمي فأنا أخاصمك إلى نفسك وأستدعي عليك حكمك . وأن نظراتك الصادقة إذا نظرت إلى شيء عرفته على ما هو عليه فلا تغلط فيما تراه ولا تحسب الورم شحما . وما ينتفع أخو الدنيا بنظره ولا يعود عليه فائدة بصده إذا استوت عنده الصحة والسقم والأنوار والظلم .. ثم يقول : إن شعره سار في آفاق البلاد واشتهر حتى تحقق عند الأعمى والأصم فكأن الأعمى رآه لتحققه عنده وكأن الأصم سمعه . وأنا أنام ساكن القلب متمكن النوم لا أعجب بشوارد ما أبدع ولا أحفل بنوادر ما أنظم ويسهر الخلق في تحفظ ذلك وتعلمه ويختصمون في تعرفه وتفهمه . ورب جاهل خدعه تركي له في جهله وضحكي منه حتى افترسته بعد زمان فأهلكته فانا اغضي عن الجاهل حتى أهلكه فرب جاهل اغتر بمجاملتي ومسامحتي إياه وضحكي على جهله حتى سطوت به ففرسته وغضبت عليه فأهلكته . وإذا كشر الأسد عن نابه فليس ذلك تبسما وإنما هو قصد الافتراس . ورب إنسان طلب نفسي كما طلبت نفسه أدركتها على جواد ظهره حرم لأمن راكبه لأنه لا يقدر عليه فكأنه في حرم .. وهذا الجواد في صحة جريه واستواء وقع قوائمه كأن رجليه رجل واحدة لأنه يرفعهما معا ويضعهما معا وكذلك اليدان .. ورب سيف رقيق الحدين سرت به بين الجيشين العظيمين حتى قتلت به والموت غالب تلتطم أمواجه ويضطرب بحره . فالليل يعرفني لكثرة سراي فيه وطول ادراعي له والخيل تعرفني لتقدمي في فروسيتها والبيداء تعرفني بمداومتي لقطعها والحرب والضرب يشهدان بحذقي بهما وتقدمي فيهما والقراطيس تشهد لي لإحاطتي بما فيها

والقلم عالم بإبداعي فيما يقيده . وقد سافرت وحدي فلو كانت الجبال تتعجب من أحد لتعجبت مني لكثرة ما تلقاني وحدي فصحبت الوحش في الفلوات منفردا بقطعها مستأنسا بصحبة حيوانها حتى تعجب مني سهلها وجبلها وقوزها وأكمها . يامن يعز علينا مفارقته بما أسلف إلينا من فضله واستوفرناه من الحظ بقربه وجداننا كل شيء طائل بعدكم عدم لا نسر به ومحتقر لا نبتهج له . وما أخلقنا ببركم وتكرمتكم وإيثاركم لو أن أمركم في الاعتقاد لنا على نحو أمرنا في الاعتقاد لكم وما نحن عليه من الثقة بكم . وإن كان ما فعله الحاسد لنا واختلقه الواشي بيننا مرضيا لكم مستحسنا عندكم فما يتشكى الجرح إذا أرضاكم مع شدة وجعه ولا يكره مع استحكام ألمه . وإن لم يجمعنا الحب فقد جمعتنا المعرفة وأهل العقل يراعون حق المعرفة والمعارف عندهم عهود وذمم لا يضيعونها فبيننا وسائل المعرفة ولنا إليكم شوافع المحالفة إن أحسنتم المراعاة والمعارف عند ذوي العقول الراجحة ذمم لا يضيع حفظها . وأنتم تطلبون لنا عيبا تغضون به عنا وتصغون إلى الطاعن منهم علينا فيما ينقل إليكم ولا يمكنكم ذلك ويكره الله ما تأتون من ذلك ويسخطه ويكرهه الكرم الذي يلزمكم الإنصاف والعدل ويوجب عليكم المحافظة والعقل . وأنا بعيد عن العيب والنقيصة كبعد الثريا من الشيب والكبر فكما لا يلحقها الشيب والهرم فأنا كذلك لا يلحقني العيب والنقصان .. وليته أزال الشر الذي عندي إلى من عنده النفع فيشاركونني في بؤسه . وإني أرى النوى التي أريدها والرحلة التي أعتقدها تقتضيني تجشم كل مرحلة وافية لا تستبد بها الإبل لبعد منالها ولا تطيقها لشدة أهوالها . ولئن قصدت مصر ليحدثن لمن ودعتهم ندم على مفارقتي لهم وأسف على رحيلي عنهم . وإذا سرت عن قوم وهم قادرون على إكرامي حتى لا أحتاج إلى مفارقتهم فهم المختارون للارتحال . وإن شر البلاد بلاد لا يوجد بها من يؤنس بوده ويسكن إلى كريم فعله وشر ما كسبه الإنسان ما عابه وأذله . وشر ما قنصه الصائد وظفر به قنص يشاركه فيه البزاة الشهب البزاة مع رفعتها والرخم مع وضاعتها ودناءتها . ثم يقول لسيف الدولة بأي لفظ تقول الشعر أراذل الناس الذين ليس لهم فصاحة العرب ولا تسليم العجم .[13]

إنه لمقاربة النص ضرورة الولوج إلى عالمه الداخلي وتمثل شفراته ومستغلقاته ، وهذا يتطلب بالدرجة الأولى التعامل مع النص بوصفه كلا أو جزءا متكاملا في سياق كلي ؛ فكل فقرة من فقرات النص لا بد أن تخضع في مقاربتها للمعنى الكلي للنص . والنص الذي أمامنا يمثل تشكيل موقف شخصي وردة فعل تجاه وقائع سابقة حصلت في مسيرة علاقة المتنبي بسيف الدولة الحمداني وبما طرأ فيها من تغيرات .

ولعل الإيماء هنا إلى الفرق بين الفعل وردة الفعل فيه إضاءة فارقة عند المقاربة النصية وتحليل الفعل الكلامي على المستوى التداولي وصولا إلى المعاني القصدية (الاستلزامية) .

ويهمنا هنا تماشيا مع المنحى التداولي أن نتعامل مع المعنى ممثلا في النص الكامل بوصفه كلا متكاملا يعبر بالملفوظ الكلامي وأفعال الكلام عن موقف شعوري وردود أفعال بما يحويه هذا الملفوظ في ثناياه من ظلال معنوية ، وقد تقع هذه المعاني في دائرة المسكوت عنه ، وهذه المعاني شكلت مجالا للنقاش والخصومة ؛ وكأن ما نجده في شعر المتنبي من مفارقات كلامية يستلزم ما هو متلبس بتجربة الشاعر من مفارقات ومماحكات حياتية ؛ حيث تمظهرت هذه المماحكات والتجاذبات في شكل مفارقات وشوارد كلامية يسهر الخلق جراها ويختصم .

إلا أن الأهم في كل ذلك أن هذه القصيدة مثلت نصا وسياقا كليا يتم تفسير أجزائه في ضوء هذا السياق الكلي . ولعل ما يجدر ذكره هنا أن نشير إلى المبدأ المعتمد لدى النقاد القدامى الذي يعد البيت هو وحدة القصيدة فتتم معاملة الشاعر بناء على المعاني الجزئية التي يستقل بها البيت الشعري فيؤخذ الشاعر بجريرة المحمول الجزئي الظاهر لكل بيت ، أو يتم اقتطاع البيت من النص ويتم الاستشهاد به وفقا لمحموله الكلامي ولمعناه القضوي ؛ مما أوقع في الإشكال . مثال ذلك ما نلحظه من استشهاد الناس بقول الشاعر :

وما أنا إلا من غزية أن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

فيعزلونه عن سياقه ويسقطونه على مواقف سلبية مشيرين به إلى معاني التبعية والإمعية في حين أن الشاعر لا يقصد هذا المعنى السلبي إطلاقا ، بل هو على العكس تماما يشير به إلى لزوم رأي الجماعة وعدم الانبثات عنهم لأن الخروج عن الجماعة مهلكة محققة ؛ فالشاعر هنا ملتزم بما تواضعوا عليه واتفق عليه رأيهم حتى وإن كان ذلك مخالفا لرأي الشاعر .

وهذا الأساس هو ما انبنى عليه نهج المقاربة في هذه الدراسة . كما إن الفرضية الرئيسة التي اختطتها الدراسة هو انبناء القصيدة انبناء استلزاميا وأن ما نلحظه من تعارض طاهر على المستوى الدلالي هو انعكاس لوجود تعادل تناقضي فيما تحمله بنى القصيدة من محمولات متضاربة من جهة وما مر به المتنبي من تمزق وتشتت وجداني ونفسي من جهة أخرى .

وبملاحظة مطلع القصيدة تتبدى لنا وجهتها ؛ ففي التعبير بحرقة القلب بأسلوب الندبة يعطي مؤشرا بحجم الألم الذي يعتصر قلب الرجل بسبب ما يكنه لسيف الدولة من ود وما قابله به من جفوة . وهذا المطلع يقول عنه ابن رشيق القيرواني : " إنه يدخل في السباب أكثر مما يندرج ضمن العتاب "[14]. ويقول عنه أيضا " فهذا الكلام في ذاته في نهاية الجودة غير أنه من جهة الواجب غاية في القبح والرداءة . وإنما عرض بقوم كانوا ينتقصونه عند سيف الدولة ويعارضونه في أشعاره . والإشارة كلها إلى سيف الدولة "[15] .

وابن رشيق في تعليقه هذا كان منطلقه المعنى القضوي الذي شكله السياق الجزئي لبعض أبيات القصيدة منفردة ولعل هذا السياق هو ما تكون منه معنى العنوان (عتاب وشكوى) كما يروق للكثيرين تقديره حيث شكل هذا العنوان خطا عاما من خطوط القصيدة لا يجوز تجاوزه . ولذا فإن هذا المطلع لم يرق لابن رشيق الذي عده أدخل في باب السباب وهو كذلك فعلا وفق المنظور التداولي الذي نؤسس عليه قراءتنا هنا .

فالمتنبي بهذا المطلع يعمد إلى وضع علامة صادمة تلفت الانتباه إلى حجم ما أصابه (واحر قلباه) حتى إن البعض يجعل هذا المفتتح جرى على ما هو مألوف في المقدمات الغزلية ، ولعل هذا هو ما حذا بابن رشيق أن يضعه في درجة القبح والرداءة . لكن المحور التجاوزي الذي انبنى عليه شعر المتنبي يأبى إلا أن يكسر هذه النمطية ويأخذ القارئ لبناء أفق جديد تتغير فيه المفاهيم وتتبدل فيه المعايير .

ويظهر من خلال المقارنة بين أجزاء القصيدة من أسلوب الافتتاح إلى الخاتمة أن القضية الأساسية التي قامت عليها القصيدة هي الفخر بالذات وفي هذا أيضا تجاوز على هذا المستوى ؛ إذ إن سياق القصيدة يتأسس خطابا في حضرة ملك ولهذا المقام مقاله ، ولكننا نجد أن القصيدة طافحة بحديث الذات وهذا مما يمكن رصده في طغيان ضمير المتكلم الذي كان حاضرا في ما يقارب من أربعين مرة وهذا في حد ذاته انحراف وخروج عن المألوف ويخرق المبادئ التي اشترطت خرقها مبادئ الاستلزام الحواري .

ومن خلال تطبيق مبدأ التعاون وقوانينه عند (جرايس) فإن الهدف هنا هو الإجابة عن : " كيف يقصد المتكلم مالم يقله ؟ .وبعبارة أخرى كيف يوصل المتكلم مقصوده إلى المخاطب دون أن يصرح باللفظ المباشر ؟ وقد وضع جرايس فرضيته التي تنص على وجود مبدأ عام يحكم عملية الحوار يلتزم به المتحاورون ضمنيا وهذا هو مبدأ التعاون ، حيث يتعاون أطراف الحوار على إنجاح حوارهم وإيصال مقصودهم "[16]

كما يظهر المنحى الاستلزامي للقصيدة في لجوء الشاعر إلى استراتيجية التعميم وما يترتب عنها من دلالات استلزامية وهذا ما يمكن رصده في قوله : وتدعي حب سيف الدولة الأمم ــ بأنني خير من تسعى به قدم ــ

فاستخدام كلمة (الأمم) في المثال الأول كان للخروج من التصريح بذكر الخصوم الذين أراد التقليل من شأنهم وعدم الاعتداد بهم في حياة الشاعر ليلمح إلى أنه لا يقيم لهم أي وزن أو اعتبار ؛ فهم في نظره مجرد (زعانف) وشعرهم مرذول لا هو معدود من كلام العرب ولا العجم . وفي قوله :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأنني خير من تسعى به قدم

ومن حيث إن الذي وقع هو خلاف المأمول من إدراك فضلي وإنزالي منزلتي فإن إدراك الحقيقة والوقوف على الخطأ سيتحقق قريبا وسيدرك سيف الدولة ما وقع فيه من خطأ فاذح ولنذهب هنا إلى تحليل هاذين التركيبين : (الجمع ممن ضم مجلسنا) (خير من تسعى به قدم) ففي التركيب الأول قصر حصول العلم على الجمع المجتمعين لدى سيف الدولة ، ولكن هذه الصيغة تخفي وراءها معنى آخر وهو أن المقصود بلفظ (المجتمعين) هو سيف الدولة فقط فالغرماء مستثنون من القصد لا محالة ؛ ولعل هذا كان سبيلا من سبل التعمية المقصودة وعدم الإظهار الفج للقصد الكلامي . كما أن عدم حصول العلم لسيف الدولة راجع إلى النظرات الخادعة التي ذكرها في قصيدته والنص يفسر بعضه بعضا وفي قوله : (خير من تسعى به قدم) عند النظر في السياق

المقامي نجد أن المعنى مختزل في لفظة : (الجمع) التي جعلها محور ارتكاز في المعنى الفني ؛ فالمعنى هنا ليس على إطلاقه وبحسب ظاهره كما يبدو للبعض .. فبالنظر في المرجحات السياقية والقرائن الحالية ندرك أن من (تسعى بهم قدم) هنا منحصر في الحضور المجتمعين باستثناء سيف الدولة . وحيث ترجح لدينا المقصود من الذين سيحصل لهم العلم لاحقا وهو سيف الدولة نفسه ؛ فكذلك الحال أن سيف الدولة غير داخل في معادلة المفاضلة داخل المجلس ، وكأن الخطاب بجملته موجه لسيف الدولة على طريقة : إياك أعني واسمعي يا جارة .

كما إن هذا المنهج التعميمي نجده حاضرا بصورة مطردة في عديد المواضع بحيث يجعل هذا مقياسا عاما يخرجه من مأزق التنصيص على المقصود وهذه تقنية فنية يدخل فيها المقصود الذي هنا هو سيف الدولة من باب دخول الخاص تحت العام ، كما أن النص المباشر هنا يوقع الشاعر في أزمة حقيقية تتمثل في مخالفة العرف السائد في مجالس الملوك وهو توقيرهم وعدم مواجهتهم بلهجة فيها نوع تهديد .

كما إن الاستراتيجية ذاتها نجدها حاضرة في قوله :

لَئِنْ تَرَكْـــــنَ ضُمَيراً عَـــــنْ مَيـــامِنِنا لَيَحْدُثَنّ لمَـــــــــــــنْ وَدّعْتُهُمْ نـــــدَمُ

فالتوديع المراد هنا لا مقصود من ورائه سوى سيف الدولة وبذا تكون الصيغة المتوارية خلف (من) الموصولية هي : لَئِنْ تَرَكْـــنَ ضُمَيراً عَـــنْ مَيـــامِنِنا لَيَحْدُثَنّ لـــــ(سيف الدولة) الـنَـــــــدَمُ

وهو ما يمكن تأكيده بذات الاستراتيجية المتبعة في قوله :

إذا تَرَحّلْتَ عـــــن قَوْمٍ وَقَـــد قَـــدَرُوا أنْ لا تُفـــــــــــارِقَهُمْ فالرّاحِلونَ هُمُ

ففي هذا البيت لجأ إلى التعميم بطرح قاعدة عمومية يستشهد بها في حالته موماً بذلك إلى ما يقصده من تحذير وتهديد لسيف الدولة إذا ما استمر على موقفه من عدم الرجوع عن خطأه . وقد جاء ذكر القوم توسلا للخروج عن التعبير المباشر الذي يفسد المشهد بأسره لأنه في تلك الحال لا يمكن للشاعر أن يوجد المبرر لإنشاد القصيدة في مجلس سيف الدولة وما يتطلبه ذلك من تسجيل عبارات المدح والإطراء ؛ فإدخال كل القوم دون تخصيص وكذلك ضمير الجماعة (هم) في البين جعل المتنبي متترسا وراءه فأخرج تهديده إخراجا غير مباشر .

ومما يمكن أن نقف عنده في ذات السياق للوقوف على تقنية التعميم وابعادها الفنية وانعكاساتها الجمالية وبناء المعاني الاستلزامية التي يلتقطها القارئ من النص فور الولوج إلى عالمه ما نجده في قصائد أخرى للمتنبي يظهر فيها هذا المنحى بوضوح مثال ذلك ما جاء في قصيدته التي يذكر فيها الحمى التي كانت تغشاه بمصر . وحيث اجتمع عليه داء الحمى وما لقيه من كافور من خلف للوعد فكان تصريحه الظاهر الخفي في آن واحد ؛ حيث لا يستطيع التعبير مباشرة عن ردة فعله إزاء كافور فقال :[17]

ولا أمسي لأهـل البخل ضيفا وليس قرى سوى مخ النعام

فلمـا صار ود النـاس خـــــبا جزيـت على ابتسام بابتسام

وصرت أشـك فيمن أصطفيه لعلـمي أنـه بعض الأنـــــام

يحب العاقلـون على التصافي وحب الجاهلين على الوسام

وآنف مـن أخـي لأبـي وأمـي إذا مـــا لـم أجده من الكرام

فنجده يتحدث عن (أهل البخل) و (ود الناس) و (أشك فيمن أصطفيه) و (حب العاقلين وحب الجاهلين) و (أنه يأنف من أخيه إذا لم يكن من الكرام) وهو في جيع ذلك له قصد يومئ إليه ويشير إليه وهو تبرمه وغضبه من فعل كافور معه ؛ فأهل البخل هم كافور لكن التعثيم يقتضي التترس وراء العموم وكذلك هو يأنف من أخيه لأبيه وأمه فما بالك بكافور .

إن سياق البنية المدحية في القصيدة موضوع الدراسة يشي بانبنائها بناء بروتوكوليا موجها إشاريا نحو تكريس البعد المقصدي للقصيدة لدرجة أننا نجد هذا المدح الظاهر يتقاطع ضمنا مع سياق الفخر والاعتداد بالذات ؛ ففي قوله :

قد زُرْتُهُ وَسُيُـــــوفُ الهِنْدِ مُغْمَدَةٌ وَقـــد نَظَـــــرْتُ إلَيْهِ وَالسّيُوفُ دَمُ

ليس المقصود حقيقة في تضمين معاني الصحبة الدائمة لسيف الدولة بقدر ما يتضمنه السياق من تأكيد معنى الشجاعة والإقدام وأنه لا تقتصر صحبته لسيف الدولة أيام السلم والدعة رغبة في الأعطيات فقط ، بل إنه مشارك له في المعارك وما فيها من مخاطر . وهذا فيه إشارة إلى الآخرين الذين استحوذوا على تقدير سيف الدولة وهم لا يعرفونه إلا في أوقات السلم .

فالمدح المفهوم ظاهرا هو في الحقيقة مدح عارض وثانوي بالقياس إلى البعد المقصدي والمنحى الاستلزامي في بناء النص . بل نجد عند مقاربة النص تداوليا أن ثمة تناقضا وقع فيه الشاعر ؛ فكيف بمن كان أحسن خلق الله أن تصدر عنه مثل هذه التصرفات التي جعلت المتنبي يصرخ مدويا من أثر وقعها عليه ، ثم أين هي تلك الشيم من هذا الظلم وهذا الاختلال في التقدير وإنزال الناس منازلها ؟ . ولعل مما يخفف من وطأة هذا التناقض تصدير شطري البيت بالفعل (كان) الذي يلجمه السياق القصدي من الاستمرار في الزمن وفي هذا ما فيه من التداهي في القول وهو ما دعا ابن جني إلى القول في كتابه الفسر : " وقد كان طوى شعره كثيرا من مديحه على الهجاء وكان يقول : لو شئت لقلبت جميع ما مدحته به فجعلته هجوا وقد وافقته أنا على كثير من ذلك فاعترف به وتقبله . وفي قوله :

وما طــربي لمـــا رأيتك بدعـــة لقد كنت أرجو أن اراك فأطربا

لما قرأت عليه هذا البيت قلت له : أجعلت الرجل أبا زنة ؟ فضحك لذلك "[18] . وهذا منهج سلكه المتنبي في شعره بفعل تمكنه من قياد الكلمة وهذا ما جعل القوم يسهرون ويختصمون جراء شوارده وما تنطوي عليه من معان .

كما إنه وعند التأمل في المساق الدلالي تتأكد لنا فكرة التعادل الذي قام عليه معنى النص ؛ فالمتنبي يتعادل مع سيف الدولة ؛ حيث يلتقي المتنبي (الشاعر) (الفارس) مع سيف الدولة (الفارس) (الملك) ؛ فإذا كان سيف الدولة قد تفرد بالفروسية والملك فإن المتنبي تفرد بالفروسية والشعر وكلا الطرفين تربطهما علاقات براجماتية ، إلا إن حاجة سيف الدولة للشاعر أشد ، والشاعر بإمكانه أن يستغني عن الملك علاوة على كونه طامحا في تحقيق المجد السلطوي . ولعل هذا ما جعل من المتنبي يتجاوز المألوف ويعامل الملك معاملة النديد ، بل إنه يتجاسر ويتجاوز أكثر فيخاطبة بأسلوب غزلي . وبهذا يمكننا تفهم المساحة الدلالية التي تحرك فيها ضمير الجمع وعادلها بدلالة ذات الضمير الراجع لسيف الدولة في قوله :

كـــــم تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْباً فيُعجِـــزُكـــــمْ وَيَكْـــــرَهُ الله ما تَأتُونَ وَالـــكَـــــرَمُ

على ما في هذا البيت من التعنيف لسيف الدولة بسبب إصغائه إلى الطاعنين عليه والساعين بالوشاية . وكل هذا يصب في اتجاه تعمية الخطاب والتفنن في إيراد المعاني بطريق غير مباشر ولتأكيد ذلك نتحول إلى البيت الذي اعتبرته هذه الدراسة محور ارتكاز في المقاربة وهو قوله :

يا أعـــــدَلَ النّاسِ إلاّ في مُعـــــــامَلَتي فيكَ الخِصامُ وَأنتَ الخصْمُ وَالحكَمُ

حيث يمثل هذا البيت الأنموذج الانزياحي المعتمد ؛ إذ الانزياح هو الذي تقوم عليه نظرية الاستلزام الحواري (التخاطبي) في حقل التداولية . ويقوم هذا الانزياح هنا على مخالفة قاعدة الكيف التي تعد إحدى القواعد التي يقوم عليها مبدأ التعاون وهو بدوره يرتكز على ما يبذله المتحاورون من مجهودات لإنجاح التواصل [19]. إن مساحة المفارقة التي أتاحتها عبارة (أعدل الناس) شكلت شفرة المعادلة في المقاربة التداولية لهذه القصيدة ؛ فالشاعر ختم البيت بحكم عرفي مفاده أن الخصم لا يكون حكما ؛ ولذا فقد بات جليا أن تعبيره بـــ أعدل الناس هو إيماء إلى عكسه تماما وهو (أظلم الناس) فكان تعبيره إذن من باب المجاز وهذا هو محور المخالفة لقاعدة الكيف التي تلزم المتكلم بأن لا يقول إلا ما يعتقد صدقه ؛ فالشاعر هنا لجأ إلى منطق المراوغة لتوصيل

ما يرمي إليه دون أن تلحقه تبعات ذلك ودون أن يغلف ردة فعله بغلاف المدح بصفات القوة المادية وما يقتضيه الملك والسيادة وما انضاف إلى ذلك من تقرير أن المحبة والود الخالص لم يكونا إلا من طرف واحد وسيف الدولة في كل ذلك لم يكن في موضع التقدير والمعاملة بالمثل

وعلى ذات السبيل يواجهنا قوله :

أَعِيذُها نَظَـــــراتٍ مِنْكَ صـــادِقَةً أن تحسَبَ الشّحمَ فيمن شحمهُ وَرَمُ

فظاهر البيت : أعيذ نظراتك الصادقة التي تصدقك حقائق المنظورات أن تخدعك في التمييز بيني وبين غيري ممن يتظاهرون بمثل فضلي وهم برءاء منه . وهذا الأمر واقع فعلا ؛ فالعوذ منصرف نحو أمر كان يفترض قبل وقوع المحذور وهو حسبان الشاعر شاعرا كما يحسب الورم شحما . وعند تحليل الموقف يتضح لنا أن النظرات الصادقة صارت خادعة وهذا من تسمية الشيء باسم نقيضه . ويؤكد ذلك ما جاء في البيت التالي له :

وَمَا انْتِفَاعُ أخـــــي الدّنْيَا بِنَاظِرِه إذا اسْتَـــوَتْ عِنْدَهُ الأنْـــوارُ وَالظّلَمُ

كأنه يقول له : لقد كان الواجب في حقكم أن يكون منكم إنصاف لنا في التفريق بيننا وبين غيرنا ؛ إذ الفرق ظاهر للعيان كالفرق بين النور والظلمة ولهذا يجب أن لا نستوي في عين البصير مع أن فضلي قد شاع بين الناس فلم يبق فيهم إلا من عرف مزيتي حتى رأى أدبي من لا يميز الأدب وسمع شعري من لا يعير الشعر أذنا . وإذا ما أخذنا باعتبارنا احتكام النص إلى معادلة الفعل وردة الفعل فإنه يمكن رصد حركة المعنى في هذه القصيدة بين ثنائية السلب والإيجاب ؛ فالشاعر هنا يصنف معاني الأنا والآخر وفق هذه الثنائية التي اتخذت صورة التعادل التناقضي ؛ فما يصدر عن الآخرين بإزاء الشاعر سلبي ، فيما يقوم المتنبي بإصدار ردات فعل قد تكون عنيفة في عدة اتجاهات وهذه الردات يضعها في إطار (الإيجابي)؛ وبهذا يتقوى ما تم تأويله فيما يقدر بأنه قد يكون داخلا في إطار المدح لسيف الدولة ؛ وحيث اتضح معامل السلب والإيجاب فإن كل ما يصدر عن سيف الدولة تجاه المتنبي هو أمر سلبي .

فقلب المتنبي محترق إزاءه ـــــــ إيجاب . وقلب سيف الدولة بارد نحوه ـــــــــ سلب

وهو يكتم هذا الحب حتى لا يتهم بالتملق ـــــــ إيجاب ويدعى الآخرون هذا الحب نفاقا ـــــــ سلب

وهو شاعر حقيقة ـــــــــ إيجاب والمتشاعرون غيره شحمهم ورم ـــــــــ سلب

وهو ملك مملكة الشعر ـــــــــ إيجاب والآخرون زعانف ـــــــــــ سلب

وهكذا يمكننا تصنيف أفعال سيف الدولة في خانة السلب مما يشي بتحويل معاني المدح لسيف الدولة إلى الهجاء المبطن . ولعل هذا ما نجده في قوله :

كـــــم تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْباً فيُعجِـــزُكـــــمْ وَيَكْـــــــــرَهُ الله ما تَأتُونَ وَالكَـــــــرَمُ

وبالرجوع إلى قوله :

قــد زُرْتُهُ وَسُيُـــــــوفُ الهِنْدِ مُغْمَدَةٌ وَقـــــد نَظَـــــــرْتُ إلَيْهِ وَالسّيُوفُ دَمُ

ومن خلال تمثل الدلالة الزمنية للفعل يمكننا ترجيح جانب الهجاء وطرف السلب في معادلة التعاقب التناقضي ؛ فالحكم على سيف الدولة بكونه أحسن الخلق عندما صاحبه المتنبي في حالي السلم والحرب كان في الزمن الماضي ولكنه حاليا يبحث عن عثرات المتنبي وعيوبه كما تشير دلالة الفعل المضارع (تطلبون) .

أما عن صفات الشاعر فحدث ولا حرج ويطول المقام بذكرها وهي متلبسة حتى بتفاصيل شخصيته وما قد يتصل بها مما استدعته نظرية الفعل وردته التي انبنت عليها القصيدة .

فهو من نظر الأعمى إلى أدبه وسمع شعره الأصم وهو الفارس الذي لا يهزم ، بل إن جواده انتقلت إليه عدوى الإيجاب ؛ فصار ظهره حرم وحركته في سرعة عجيبة حتى كأن رجلاه رجل واحدة وسيفه مرهف وحاد وتعرفه الخيل والصحارى وساحات الوغى ومضمار الشعر والإبداع ومقامي رفيع كارتفاع الثريا في

السماء ، وكأنه بهذا العرض يجعل النص يفصح في غير منطوقه اللساني باستفهامات تعجبية لسيف الدولة مفادها : (من انت حتى تعاملني هذه المعاملة وتستقبل خصومي ومنافسي وتسوي بيني وبينهم؟ من أنت حتى تتجاهلني هذا التجاهل ولا تعترف بمطالبي ولا تحقق أحلامي؟ فإذا كنت فارسا وأميرا فأنا فارس وشاعر طبقت شهرته الآفاق وهز الدنيا وأسمعت كلماته من به صمم)[20] .

ولعل معضلة المقصدية وأسئلة النص القائمة على التجاوب والتجاذب بين النص والقارئ في تبادل الأسئلة والأجوبة قد يقودانا إلى فكرة المعاني المبطنة حتى إنه يمكننا تمثل هذه المعاني في قوله :

صَحِبْتُ في الفَلَواتِ الوَحشَ منفَرِدا حتى تَعَجّبَ مني القُـــــورُ وَالأكَـــــمُ

فيصبح البيت وفقا لهذه المقاربة محملا بمعنى يومئ إلى تهديد خفي حتى لسيف الدولة ؛ فكأنه يقول هنا : إنه مستعد للعودة إلى حياة التفرد والوحشة والابتعاد عن البشر .

لقد كانت القصيدة مشحونة بالمشاعر المختلفة متأججة بالعواطف وهي تمثل عدة تجارب للشاعر منها تجربة علاقته بسيف الدولة وعلاقته مع منافسيه وحاسديه من الشعراء ورجال البلاط . ولعل التجربة الأهم كما تظهرها لنا هذه القصيدة هي تجربة الإحساس بالفشل ؛ فقد شعر أبوالطيب بأن آماله لن تتحقق في ظلال سيف الدولة ؛ وكان هذا الإحساس ذروة المأساة ، ودفعه هذا الشعور إلى التمرد الداخلي وحصل نوع من التصادم بين طموحه العارم وإحساسه العالي بالفشل [21]

ولعله في آخر هذا المطاف وبصورة سهلة مريحة أمكننا أن نستخلص إجابة لما تم طرحه في صدارة هذه الورقة من تساؤلات تلخصت في كيفية تمثل فرضية أن يقول المتكلم كلاما وهو يقصد غيره ويسمع أو يقرأ القارئ كلاما ويفهم غيره مما تقوم عليه النظرية التداولية ومطارحاتها . وبناء على ذلك فإنه يمكننا ـــ وبأريحية بالغة أن نرصد تحول المعاني وفقا لمقاربة النص تداوليا لنضع عنوانا آخر للقصيدة غير (عتاب وشكوى) وهو : (لوم وتقريع) .

ومما أمكننا استخلاصه ـ علاوة على ما سبق ـــ أن هذه المقاربة تصب في اتجاه الإسهام في تأسيس نظرية نقدية عربية نابعة من الأصول البنائية للغة العربية وتراكيبها الفنية من خلال مقاربة نصوص التراث الأدبي ونفائسه الإبداعية عوضا عن التخبط في وحل الاستغراب والانبهار بالمنجز الغربي الذي انتهى هو الآخر بالدرس الأدبي إلى اللغة في أصولها الفنية والمعرفية . وهذا الانبهار شكل قطيعة معرفية مع تراثنا ، وقد ازدادت هذه القطيعة مع وثيرة تحديث العقل العربي والبحث عن الحداثة .

إن مقاربة نص المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس تعطي القارئ الناقد مساحة شاسعة يتحرك فيها نحو استقراء الاستراتيجيات والمرجعيات والتقنيات الفنية التي يمكن أن يحتذيها المبدع في التعبير الحجاجي والنهج المتبع في الإقناع والتأثير الذي هو غاية ينشدها الفن والإبداع . وهذا يوصلنا إلى قناعة تامة بأن إعادة قراءة التراث الإبداعي يفك كثيرا من الخطوط المتداخلة للوصل إلى ترسيم كثير من التقنيات الفنية وكيفيات تمظهر جماليات الخطاب .

الهوامش

[1] انظر . التداولية أصولها واتجاهاتها . جواد ختام . ط. دار كنوز المعرفة . عمان . الأردن .الكبعة الأولى 2016م . ص 13 .
[2] انظر .آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر . محمود أحمد نحلة . دار المعرفة الجامعية . الاسكندرية 2002م . ص 12 .
[3] انظر . المقام في البلاغة العربية . دراسة تداولية . مجلة عالم الفكر . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . الكويت . عدد 1 . مجلد 42 .
[4] انظر . الاستلزام الحواري في التداول اللساني (من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها) العياشي ادراوي . ط دار الأمان . الرباط . منشورات الاختلاف الجزائر العاصمة . ط 2011م . ص 7 .
[5] النظرية البراجماتية اللسانية التداولية . دراسة المفاهيم والنشاة والمبادئ . محمود عكاشة . ط مكتبة الآداب . القاهرة . الطبعة الأولى 2013م . ص 88 .
[6] انظر . الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي . د. نادية رمضان النجار . جامعة حلوان . ط 1 2003م . ص 60 .
[7] انظر .آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر .د. محمد أحمد نحلة . ظ دار المعرفة الجامعية 2002م . ص 32 .
[8] انظر . التداولية من أوستن إلى غوفمان . فيليب بلشيه .. ترجمة صابر الحباشة .ط دار الحوار 2007م ص68 .
[9] انظر . اللسان والميزان . طه عبد الرحمن . ط المركز الثقافي العربي . ط 1990م . ص 238 .
[10] يقصد بالمعنى القضوي للتركيب هو مجموع معاني مفردات الجملة مضموم بعضها إلى بعض .
[11] انظر نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس . صلاح إسماعيل . ط الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر .القاهرة . مصر .2005م . ص 78 .
[12] انظر . أبوالطيب المتنبي شاعر العروبة وحكيم الدهر . د. عبدالعزيز الدسوقي . ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت . لبنان .الطبعة الأولى 2006م . ص 246 .
[13] ينظر . شرح ديوان أبي الطيب المتنبي . لأبي البقاء العكبري . ط دار المعرفة . بيروت . لبنان . الجزء الثالث . بتصرف . الصفحات من 362 إلى 374 .
[14] العمدة . لابن رشيق القيرواني . ت . محمد محي الدين عبدالحميد . ط دار الجيل . بيروت . لبنان . الطبعة الخامسة 1981م . الجزء 2 . ص 165 .
[15] نفس المرجع والصفحة .
[16] انظر . النظرية القصدية في المعنى عند جرايس . صلاح إسماعيل . حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية . الكويت . الحولية الخامسة والعشرون . 2005م . ص 78 .
[17] شرح ديوان المتنبي . للعكبري . ج 3 . ص 144 .
[18] الفسر . شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي . لأبي الفتح عثمان بن جني . ت . د. رضا رجب . ط دار الينابيع . دمشق . سوريا . الطبعة الأولى 2004م . المجلد الأول . ص 582 ، 583 .
[19] انظر . التداولية أصولها واتجاهاتها . جواد ختام . ط دار كنوز المعرفة للنشر . عمان . الأردن . الطبعة الأولى . 2016 م . ص 101 .
[20] أبوالطيب المتنبي شاعر العروبة وحكيم الدهر . ص 250 .
[21] انظر . المرجع السابق . ص 246 .

المصادر والمراجع

ــ أبوالطيب المتنبي شاعر العروبة وحكيم الدهر . د. عبدالعزيز الدسوقي . ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت . لبنان .الطبعة الأولى
ــ آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر .د. محمد أحمد نحلة . ظ دار المعرفة الجامعية 2002م .
ــ الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي . د. نادية رمضان النجار . جامعة حلوان . ط 1 2003م .
ــ الاستلزام الحواري في التداول اللساني (من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها) العياشي ادراوي . ط دار الأمان . الرباط . منشورات الاختلاف الجزائر العاصمة . ط 2011م .
ــ التداولية أصولها واتجاهاتها . جواد ختام . ط. دار كنوز المعرفة . عمان . الأردن .الكبعة الأولى 2016م .
ــ التداولية من أوستن إلى غوفمان . فيليب بلشيه .. ترجمة صابر الحباشة .ط دار الحوار 2007م
ــ شرح ديوان أبي الطيب المتنبي . لأبي البقاء العكبري . ط دار المعرفة . بيروت . لبنان .
ــ الفسر . شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي . لأبي الفتح عثمان بن جني . ت . د. رضا رجب . ط دار الينابيع . دمشق . سوريا . الطبعة
ــ العمدة . لابن رشيق القيرواني . ت . محمد محي الدين عبدالحميد . ط دار الجيل . بيروت . لبنان . الطبعة الخامسة 1981م .
ــ اللسان والميزان . طه عبد الرحمن . ط المركز الثقافي العربي . ط 1990
ــ المقام في البلاغة العربية . دراسة تداولية . مجلة عالم الفكر . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . الكويت . عدد 1 . مجلد 42 .
ــ النظرية البراجماتية اللسانية التداولية . دراسة المفاهيم والنشاة والمبادئ . محمود عكاشة . ط مكتبة الآداب . القاهرة . الطبعة الأولى 2013م .
ــ النظرية القصدية في المعنى عند جرايس . صلاح إسماعيل . حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية . الكويت . الحولية الخامسة والعشرون . 2005م
الأولى 2004م .
ــ نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس . صلاح إسماعيل . ط الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر .القاهرة . مصر .2005م .
2006م .